# زواوة في حماية الزوايا
## «دور الزوايا في حفظ العقيدة واللغة»

بقلم: أ. سي حاج محند. م.طيب
أستاذ باحث

### تمهيد:

لم تكن الزوايا معروفة في صدر الإسلام، أو على الأقل لم تكن معروفة بهذا الاسم وبهذا المدلول؛ وإن كان بعض الباحثين ألحق بها الصفّة المعروفة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. ظهرت باكرا في المشرق باسم الرباطات. والهدف منها حراسة دار الإسلام من العدو. أما في المغرب الإسلامي فقد ظهرت حوالي القرن الرابع أو الخامس الهجري باسم "الزاوية" في الغالب. ويرى بعضهم أن الأصل في ذلك اتخاذ بعض العلماء زاوية من المسجد لعقد حلقة خاصة به يقدم فيها دروسه، سيما إذا كان على اختلاف في بعض المسائل مع صاحب الحلقة الرئيسية. ثم خرجت من المسجد إلى أماكن أخرى، فالانعزال والانزواء خارج العمران؛ ابتعادا بالطلبة عما يمكن أن يشغلهم عن طلب العلم.

### هدف الزوايا

يختلف هدف الزوايا عن هدف "الرباطات"،وذلك بجعل طلب العلم وحفظ القرآن هدفا رئيسيا بالإضافة إلى الاستعداد للدفاع عن دار الإسلام، متى تطلب الأمر ذلك. وبذلك كانت مهمة الزوايا أوسع وأنجع من مهمة الرباطات. حيث تستغل الوقت الثمين للمنتسبين إليها في أعزما يكتسب ألا وهو طلب العلم. وليس هذا فحسب بل أصبحت الزوايا مصانع تصنع فيها العقول، ومزارع تغرس فيها المواهب التي ستعطي للبشرية الكثير والكثير جدا؛ فلولا تلك الزاوايا لضاعت تلك المواهب وقبرت تلك العبقريات، وحرمت منها البشرية.

وبما أن الإحاطة بموضوع الزوايا متعذر في هذه العجالة، رأينا أن نتناول منطقة "زواوة" كنموذج؛ لأن الزوايا في الجزائر متشابهة في التنظيم والتسيير، ومتوحدة في الاتجاه والغاية؛ إذ الكل يهدف إلى الحفاظ على الدين واللغة العربية التي لا يفهم إلا بها.

## أنواع الزوايا بمنطقة زواوة

أولا ينبغي تصحيح فكرة شائعة وهي أن منطقة "زواوة" تحمل هذا الاسم لكثرة الزوايا فيها. وهذا خطأ تاريخي فادح؛ ذلك أن "زواوة" قبيلة قديمة من قبائل البربر الأمازيغ، وهي موجودة قبل الإسلام بقرون.

**أما أنواع الزوايا بالمنطقة فهي كما يلي:**

1 - زوايا تكتفي بتعليم القرآن فقط. وهذا لافتقارها لمن يضطلع بمهمة تقديم الدروس في مختلف الفنون والعلوم. وبذلك يتخرج روادها حافظين للقرآن الكريم بكل إتقان، ولكنهم لا يكادون يفقهون منه شيئا. ولعل النكتة التالية تبين لنا مدى فهم هؤلاء لمعاني القرآن الكريم.

تقول النكتة: كان إمام في قرية ممن يحفظون القرآن ولا يفهمونه. وذات يوم صلى بالناس وقرأ سورة الغاشية في صلاته. فلما سلم من صلاته التفت إلى المصلين وكله خشوع وتأثر وإعجاب فقال لهم: فكروا ووحدوا الله وعظموه؛ فإن كلامه لم يترك أي شيء لم يذكره وحتى لُعب الأطفال.حيث قال: «أفلا ينظرون إلى الإبِلِ كيف خلقت». مشيرا بيده إلى لعبة الكويرات، موضحا إشارته بقوله: نعم ..نعم.. حتى [لِبِلْ] الأطفال... فانتقلت موجة الخشوع والتأثر والإعجاب إلى الحاضرين فَاخذوا يرددون: «سبحان الله..سبحان الله..». ومع ذلك فإن هذه الزوايا قدمت . مشكورة . خدمة جليلة للدين وهي المحافظة على كتاب الله عز وجل في صدور الأجيال، رغم قلة الإمكانات.

2 - زوايا تجمع بين تحفيظ القرآن وتقديم الدروس في الفقه واللغة العربية حسب الإمكانيات المتوفرة لديها، وغالبا

مايقوم شيخ الزاوية بهذه المهمة، التي تقتصرعلى مبادئ أولية في النحوبتدريس متن الأجرومية، ومبادئ الفقه باعتماد نظم ابن عاشر؛ لأن مستوى الطلاب لا يتطلب أكثرمن ذلك. وربما كفاءة الشيخ أيضا لا تسمح بأكثرمن ذلك.

3 - زوايا تضيف إلى تحفيظ القرآن وتقديم الدروس رعاية طريقة من الطرق الصوفية. وهذا الصنف من الزوايا في العادة يكون أهم وأبرز من غيرها، سواء من حيث عدد الطلبة أو مستوى الدروس وتنوعها،والتي يقدمها أكثر من واحد، زيادة على شيخ الزاوية الذي يخصص بعض وقته لاستقبال المريدين الحاليين والوافدين الجدد الذين يأخدون «الميثاق» من الشيخ ليصبحوا كغيرهم من المريدين القدماء. ويُدعون بالمنطقة: «الاَخْوان». وقد يعقد الشيخ معهم حلقات للذكر وتسمى»الحضرة». أو حلقات للوعظ والإرشاد. وإيواء هؤلاء وإطعامهم على الزاويةمهما كان عددهم، وسواء من قدّم منهم ما يعرف بالوعدة ومن لم يقدم. والوعدة مبلغ من المال يُتبرع به حسب ما تجود به نفس المتبرع وحسب مقدرته.

أما زوايا الطرق الصوفية بدون طلبة فلا وجود لها بالناحية، وإنما يتولى هذه المهمة ويرعاها شيخ معروف يعتقد فيه الناس أنه صاحب كرامات. وقد يكون أميا ولكنه مقبول عند العامة لإيمانهم بالعلم اللدني. وقد تتوسع شهرته حتى تغطي شهرة الشيخ العالم للزاوية أوتكاد.

## مسيرة الزوايا بمنطقة زواوة

أشرنا آنفا أن نظام الزوايا ظهر في المغرب الإسلامي في القرن الرابع أو الخامس الهجري. ولكن عدد الزوايا بالمنطقة بدأ يزداد حين أخذت بعض القلاقل والفتن تهز الحواضر؛ مما دفع ببعض العلماء إلى هجرتها، واللجوء إلى حيث يمكنهم أداء رسالتهم في ظروف مواتية. أما سبب كثرة الزوايا بمنطقة زواوة بالخصوص فناتج عن احتلال حاضرة من حواضر العلم بالجزائرمن طرف الإسبان، وهي مدينة «بجاية»، حيث لجأ معظم الشيوخ والعلماء إلى الأرياف لمواصلة مهمتهم النبيلة الشاقة؛

ألا وهي الحفاظ على التراث العلمي، ونشره بين أفراد الأمة؛ لأنهم يعتقدون - وهم على صواب - أن ضياع التراث ضياع للأمة، خاصة وأن العدو المتربص قد اقترب. أما لما ذا لم يذهبوا بعيدا فراجع إلى عدة عوامل منها: العلاقات التي توطدت مع الأيام بين عاصمة العلم «بجاية» وما حولها من القرى والمداشر، بحيث لا يكاد يوجد عالم أو شيخ ليس له طلبة أو أتباع في النواحي المجاورة. وهذا أفضل له أن يحل ببلد لا يعرف فيه أحدا. ومنها صعوبة التنقل وقلة وسائل النقل أو انعدامها أحيانا في ذلك الحين، سيما إذا عرفنا أن الكنوز التي لا تتنازل عنها نفوس العلماء هي مكتباتهم التي يحرصون عليها أكثر من جميع ممتلكاتهم. ويضاف إلى ذلك الطبيعة الجغرافية للناحية، مما يكوّن حماية طبيعية للمستقر فيها.

ولما طرد العثمانيون الإسبان من بجاية تفرغت الزوايا في ظل هذا الحكم لأداء مهمتها النبيلة بكل جدية وإخلاص، خاصة وأن الدولة الحاكمة لايكن لها الأهالي أية عداوة، لأنها دولة مسلمة مثلهم، كما أن الدولة لاتعرقل ولا تضايق هذه الزوايا، بل تركتها تعمل في حرية حسب تخطيطها ما دامت لا تكلفها أموالا لتسييرها، لاعتمادها على أموال الأوقاف الوفيرة، التي جعلت الطلبة وشيوخهم يعيشون في ظروف مقبولة. بل إن السلطة تمد يد المساعدة إليها أحيانا،تودد لها واسترضاء للسكان.

هكذا كانت الزوايا أثناء الحكم العثماني. ولكن هل بقيت الأوضاع كما هي بعد أن انتقلت السلطة إلى وافد متوحش جديد.؟ مع الأسف لقدانقلبت الأوضاع كلها رأسا على عقب؛ ولم تعد الزوايا تعمل في هدوء، ولم يكن روادها ينعمون بالأمان؛لأن الوافد البغيض جاء بنية إبادة كيان أمة، وتخريب البلاد إلا ما كان له فيه مصلحة؛ فالديانة مختلفة والاتجاه مغاير والمصالح متضاربة. فوجدت الزوايا نفسها ومعها الأمة أمام خطر محدق يهددها بالفناء. وبالفعل فقد تأكدت المخاوف، وبدأ المحتل يطبق مخططه الشيطاني، فعمد إلى الشريان

الحيوي للزوايا فقطعه. ذلك الشريان هو أملاك الوقف التي تعتمد عليها الزوايا اعتمادا كليا في بقائها واستمرارها، فأصدر قانونا سنة 1843 يقضي بالاستيلاء علي هذه الأملاك بحجة أنها أملاك الدولة السابقة والدولة ترث الدولة. فأصبحت الزوايا بدون أي مورد لتواصل مهمتها. فتشتت الشيوخ والعلماء وتفرَّق الطلبة، فأضحت أطلالا يعوي فيها الخراب..إنها كارثة بأتم معنى الكلمة، حتى أن بعض الغزاة الجدد كتب يقول: «يظن الناس أن انتصارنا العسكري في احتلال الجزائر انتصار باهر، ولكن خفي عليهم أن ثمة انتصارا أهم منه بكثير؛ ذلك هو نجاحنا في تشتيت العلماء وتشريد الطلبة باستيلائنا على أملاك الوقف، التي كانت تضمن لهم الاستقرار والاستمرار في أداء مهمتهم، التي كانوا يقومون بها على أحسن وجه، مما مكنهم من جعل الشعب كله تقريبا يعرف القراءة والكتابة أكثر من الشعب الفرنسي..».

هبّ الشعب لرد العدوان بعد سقوط الدولة، وقام بمختلف الثورات، والزوايا قامت بدور فعال في تلك الثورات رغم قلة الإمكانيات. وليس من المبالغة إذا قلنا: «إن الزوايا هي محضن لتلك الثورات». وبعد أن استنفدت الثورات كل قواها ولم تنجح، همدت لبعض الوقت لاستعادة أنفاسها.

أما الزوايا فلم تتوقف عن الكفاح؛ فقد شعرت بضرورة تحمل المسؤولية؛ فبالإضافة إلي المهمة السابقة وهي نشر العلم والمعرفة بين أفراد الأمة، وجدت نفسها مجبرة على القيام بمسؤولية أخرى أثقل وأصعب، رغم قلة الإمكانيات وانعدام الظروف المواتية. تلك المسؤولية هي الذود والدفاع المستميت عن هذا الدين ولغته، لأنهما المستهدفان من طرف الوافد المتوحش البغيض.

## خطة الاستدمار للقضاء على الدين الإسلامي

في سنة 1867 دعا الكاردينال «لافجري» إلى عقد مؤتمر مسيحي عالمي بالجزائر، وأعلن للحضور أن حركته بصدد مشروع هام ولكنه ثقيل لا يمكن لحركته أن تنجزه بمفردها، لذلك فهي تستعين بكل المسيحيين عبر

العالم. أما المشروع فهو تمسيح الجزائر (الفرنسية). وبما أن فرنسا لايمكنها أن تنجب ما تعمر به أرض فرنسا وأرض الجزائر(الفرنسية)،فقد عوض بحل آخر،بشرط توفير المساعدة والتأييد من الجميع. أما الحل فيكمن في التركيز على ما يقرب من مليونين من القبائل حتى يتمسحوا جميعا، ثم يطلقون على باقي الجزائر(الفرنسية)، فهم الذين يمسحونها حتى لا يبقى مسلم واحد في الجزائر(الفرنسية)... فأجابه الوالي العام الحاكم في الجزائر باسم فرنسا قائلا: «أبي العزيز اعلم أن دولة فرنسا هي التي تحدثك لأني أمثلها، وأعدك وعدا صادقا أمام العالم الذي يمثله هؤلاء الحضور أننا معكم بنفوذنا وقوتنا وأموالنا وجميع إمكانياتنا؛ فميزانيتكم مقبولة مسبقا مهما كانت، اطلبوا ما شئتم ولا تترددوا، إنما فقط أنجزوا لنا هذا المشروع الذي سيرفع هامة فرنسا عاليا بين الأمم...»

انفض الجمع وبدأ التطبيق في الميدان؛ فأُسِّس مركز للتبشير بعرش «آث يَنِّي». فوقع الاختيار عليه لأنه سرة القبائل الكبرى كما يقولون. وعُزز بفروع في كل من عين الحمّام، وجمعة الصهاريج، وبني دواله، وواضيه، وواحد بإغيل علي بالقبائل الصغرى. ولكن السكان لم يقفوا مكتوفي الأيدي بل أخذوا يؤسسون هم أيضا زوايا بجوار مراكز التبشير تصديا لهجمتها الشرسة؛ مثل زاوية «بني دواله» وزاوية «جمعة الصهاريج».

بدأت الحركة التبشيرية عملها بجدية متناهية، مزخرفة بالإغراءات، ومبطنة بالحيلة والمكر والخداع،وذلك باستغلال الفقر والعوز لدى السكان. وبالفعل فقد أثروا في بعض من اضطرتهم ظروف الحياة القاسية. وعيشة البؤس والشقاء في فقر مدقع. ومع ذلك فإن أغلبهم ضحكوا على ذقون المبشرين. فمن ذلك هذه القصة التي رواها لي أحد سكان القرية التي فيها مركز المبشرين بعين الحمام وهو أستاذ التعليم المتوسط وشاهد على الحدث. قال: «كان أحد الفقراء في قريتنا يعيش معيشة ضنكا مع عائلته الكثيرة العدد، فراوده المبشر بالمركز وانساق له بكل طواعية، مظهرا

له اقتناعه وسعادته بالدخول في الدين المسيحي. وبحكم أنه يتمتع بالحيوية والنشاط ساعدوه حتى ارتاش؛ وتحسنت أحواله؛ فاشترى أرضا وبنى له بيتا. وهذا استدراجا لغيره حتى يقعوا في الشراك مثله.ولما مرت17 سنةووضع عقد الملكية في جيبه ذهب إلى المسجد ليصلي وراء الإمام. ترامت الأخبار إلى المبشر الذي كان يظن أنه أوقعه في شراكه إلى الأبد، ونزل الخبر عليه كالصاعقة، وذهب في الحين لرفع دعوى ضدهفي المحكمة ويوم المحاكمة سأله القاضي ماذا يطلب؟ فقال له: «هذا الإنسان خبيث شرير بطبعه ولا يستحق أيّ خيرلقد كان لم يشبع يوما من القوت فأشفقنا عليه وآويناه وراعيناه وساعدناه، حتى صار في قريته بورجوازيا. وأخيرا انقلب إلى ضلاله ولم يعترف بأي جميل.. إنه كنود جحود، لذا يجب إنزال أقسى العقوبات عليه ولا يستحق غير ذلك». سأل القاضي المدعى عليه قائلا: «وأنت ما ذا تقول».؟ فأجاب: «سيدي القاضي كل ما قاله (مومْبير) صحيح. ولكن أعطاني كل ما أعطاني لأني صليت وراء راهبهم مدة 17 سنة، والآن ندمت، فليرد لي صلاتي وسأرد له كل ما أخذت، ولا أطالبه بالصلاة وراء إمامنا17 سنة، بل يكفي أن يصلي فقط وراء إمامنا وقتا واحدا». فرد عليه القاضي متعجبا من ذكائه وحنكته وخطته فقال: «البراءة لك..ا ذهب واحتفظ بما في يدك فأنت الرابح»...وهناك أحداث مماثلة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

وبجوار كنيسة السيدة الإفريقية ببولغين بالجزائر جدار يعلوه تمثال أحد القساوسة وبيده صليب موجه نحو القبائل كتبت تحته عبارة: «إن مسيحيي الجزائر لا يهدأ لهم بال،ولا يقر لهم قرار،ولا يلذ لهم طعام، ما لم تتمسح القبائل».[أزيل الجدار غداة الاستقلال].

ثم إن فرنسا لم تكتف بمحاولة تمسيح الكبار بل عمدت إلى الصغار للاستلاء على عقولهم قبل أن تُغرس فيها روح المقاومة والوطنية، فراحت تؤسس مدارس في الناحية، أكثرمن سائرالنواحي بالجزائر. ومما يؤكد هذا الرأي أن البرلمان الفرنسي عقد اجتماعا عام 1908

لمراجعة مزانية الدولة، ولتخفيف العبء على الخزينة قرر منع كل طفل ليس من أصل فرنسي من الالتحاق بالمدرسة. ولما قرأ الناس القرار رد عليه مدير مدرسة تخريج المعلمين ببوزريعه . لم يحضرني اسمه ـ ومن جملة ما قال: «...نعم. نحن الفرنسيين ننشر نور العلم في أعالي جرجرة وبين الأمازيغ. إن الكثير يقولون: لِمَ إرهاق ميزانية الدولة بهذه الأموال الطائلة مع أن الفائدة لن تعود إلا على أعدائنا.؟ فلهؤلاء أقول: إنكم مخطئون في تقديركم. بل إن الفائدة هي لنا وحدنا.. وإن سألتموني كيف ذلك.؟فأقول لكم: إن هؤلاء الأطفال سيصبحون رجالا في المستقبل دون شك، ولكن هل تدرون ماذا نعلمهم الآن.؟ إننا نعلمهم أن الحضارة الفرنسية أرقى الحضارات وأن الصناعة الفرنسية أجود الصناعات وأن اللغة الفرنسية أجمل اللغات وأن الجيش الفرنسي أقوى الجيوش. وحين يكبرون فلا يجدون في عقولهم سوى هذه الأفكار. أتدرونما هي النتيجة المضمونة.؟ إنهم سيدافعون عنا بهذه الأفكار ونحن غائبون أفضل من جنودنا ومدافعنا وكل مانملك من قوة، هذا ما تريدون أن تحرمونا منه، لقد خدعتم فرنسا وخذلتموها وأنتم لا تشعرون..». بعد صدور هذا المقال عاد البرلمان للانعقاد فألغى قراره الأول.

من المعروف أن فرنسا ركزت جهوها على منطقة القبائل، ولكن لماذا هذا التركيز على منطقة القبائل؟؛ ذلك أنهم انتهوافي دراستهم إلى أن أضعف حلقة دينيا في الجزائر هي هذه المنطقة؛ لأن أهلها لايتكلمون العربية وبالتالي فلا يفهمون الإسلام ولا يتعبدون به إلا تعبدا سطحياتقليديا، والقبائلية لهجة محلية لا تأثير لها في سيرورة الأحداث وستندثر قريبا؛ ولذا فاستئصالهم من الإسلام في غاية من اليسر.

وهكذا نرى أن فرنسا وضعت منطقة القبائل بين فكي الكماشة: الكنيسة للكبار والمدرسة للصغار، وليس من باب المبالغة إذا قلنا: لو أن منطقة غير منطقة القبائل أحيطت بهذه الشبكة من المكايد والمخططات الجهنمية لما بقي فيها مسلم يتجه إلى القبلة، ولا من يعرف

كلمة واحدة بالعربية لغة القرآن المجيد. أما اليوم فنقولها نحن من باب الاعتزاز والافتخار. والشكر لله الواحد القهار.

## التلاحم بين أفراد المجتمع والزوايا

الزوايا لبت كل رغبات المجتمع؛ فهي التي تقدم للشباب العلم والمعرفة من خلال تحفيظ القرآن وتقديم الدروس، مع ضمان الغذاء والإيواء حتى يتفرغوا لاكتساب العلم الذي وقفوا كل جهدهم ووقتهم لأجله. ولم تهمل الكبار كذلك؛فرسخت فيهم العقيدة ووضحت لهم كيفية العبادة،حتى يعبدوا ربهم بطريقة سليمة، فوضعت لهم نظاما يحفظهم من الزلل والانحرا ف،ويزوّدهمبالأخلاقالسامية التي تنقي سرائرهم،وتقوّم سلوكهم حتى يكونوا أفرادا صالحين في المجتمع. وهذا بنشر الطرق الصوفية التي تدعو إلى الإخلاص والاستقامة في السر والعلانية لبناء مجتمع فاضل كريم.. والزوايا هي المحكمة المنصفةالعادلة بينهم في النزاعات. وهي مأوى للمسافر الذي انقطعت به السبل، وملجأ للخائف الذي تولاه الفزع من عدو يتعقبه، ومغيث للبائس الملهوف الذي أظلمت الدنيا في وجهه. بل هي مكان لطلب الشفاء للمرضى، خاصة إذا كانوا ممن يعانون من الآمراض الخفية.

كل هذا جعل الناس يلتفون حول الزوايا إلى حد الالتحام؛ فهم يؤثرونها على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؛ فنجد صاحب البستان يقدم باكورة بستانه للزاوية قبل أن يتذوقها أبناؤه، ويقدم أول مخيض بما فيه من الزبد عند نتاج ماشيته، وفي موسم الحصاد والجني حق معلوم للزوايا، وعند ميلاد مولود تقدم (وعدة) للزاويةتبركا بالقرآن وحفظة القرآن. وعند الرجوع من الغربة تزار الزاوية ويكرم نزلاؤها، وهذا حمدا وشكرا لله على العودة إلى الأهل بالسلامة. وفي الأعراس نصيب من التكرمة للزوايا التماسا من الله ببركة القرآن الهناء والسعادة للمتزوجين، والصلاح والتوفيق للذرية الآتية. وللزاوية تكرمة عند النجاة من مصيبة أو انفراج كربة.

## الخاتمة:

بهذا الالتحام الرائع العجيب بين الزوايا والسكان نجت المنطقة من التمسيح الذي حُبكت حلقاته بإحكام، وبخبرات من دهاقنة الاستدمار، المتمرسين على المكر والغدر والاحتيال، ونجت لغة القرآن من الاندثار والاضمحلال. فلولا التفاني والتضحية من قبل الزوايا لما بقيت للاسلام بالناحية بقية، ولا سمعت للغة العربية كلمة، بعد أن شن الاستدمار عليهما حربا شعواء، يغذيها الحقد والكراهية والمكر والخداع.

ولكن الزوايا احتضنت الشعلة وحمتها من الانطفاء بكل ما تملك من وسائل الحماية؛ فكل من تعلم العربية وتفهّم الدين إنما هو نتاج هذه الشعلة. فلو انطفأت هذه الشعلة لما كان لأحد منا تقريبا أن يعرف للإسلام قيمة ولا للعربية معنى.هذا هو السر في هذه المعجزة التي تحطمت دونها كل أمواج الظلم والعدوان، حتى تسلمت دولة الاستقلال الشعلة المباركة، فأفردت لها وزارة بأكملها. والحمد لله على نعمة الإسلام ونعمة الاستقلال. وعاشت منطقة زواوة وكل الجزائر في حفظ الله وحماية الزوايا.